لي عنق الفرسة الجامحة..

ظل السيد النحال دائم السعادة وهو يقبض بفرح على طرف الحبل الذى أرخاه له صديقه الكبير طازج الصداقة حشمت بركات، حتى إن الدور العلوى بالفيلا صار جاهزًا لاستقبال جلسات المزاج بشكل شبه يومى، ولما شارك فايز فودة فى بعض جلساتهم العالية بدا للسيد أن فايزًا قد ارتاح لانتقال خيمة الكرم إلى صحرائه الممتدة الشاسعة فصار يقصدها على فترات ليغذيها برضاه ويبارك للصديقين الجديدين صداقتهما البارة. أما حلمى عبد الباقى، فلم يفكر ذات ليلة أن يشاركهم سهرة واحدة.

وطفا الخير المنساب من صنبور المال المفتوح فأغرق المكان بكل ما فيه وكل من فيه.. وصارتا ـ حكمت وبشاير ـ تتلقيان إيرادًا شهريًا يزيد عن المائتى جنيه دون أن تتأملا كشف الحساب الذى تقدمه لهما صديقتهما «مارى..»

وكان لابد أن يتلقى السيد النحال وصفًا رائقًا من حكمت سرعان ما اعتمدته بشاير وهو أنه رجل «جنتلمان»، فعندما فاجأهما ذات يوم بشاب ناعم وإن كان وجهه صارمًا عرفا بعد قليل أنه المسئول عن خدمتهما، وشراء حوائجهما، ثم عرفا بعد حين أن اسمه «كُله»، فراحتا ينطقان هذا الاسم الغريب بابتسامات مراوغة، وكان ما يسبغه عليهما السيد من كرم فى شكل أطباق منتقاة من الأطعمة الفاخرة التى يقدمها لحشمت بركات فعله فى نفوسهما، وعندما زادت المكاسب لأكثر من خمسين جنيهًا لم يكن ذلك سوى ثمار ما شاهدتاه من أكشاك خشبية تقام هنا وهناك، وعلى ما يسمعانه من طرقات وضوضاء ليعرفا أن الموقع به الآن ورشة وكشك لتخزين الكاوتشوك وطلمبة سولار فى أحد الأركان..

وجدته «مارى» عازفًا عن إعادة بحث موضوع خطبته لخميسة، ووجدت أن الفتاة

تنصرف إلى عملها فى مواعيده المحددة، ثم تغلق بابها على نفسها وهى تنصرف إلى المذاكرة. وتعجبت السيدة أن الحبيبين لا يقتربان بقدر ما يبتعدان.. فأيقنت أنهما بحاجة إلى الدافع أو المحرك أو باعث الحياة فى حب ستقتله الكرامة، كرامة من منهما يبدأ الإقدام.. وقررت مارى أن تبدأ هى..

وعندما شرعت فى ذلك بدأت فى إبداء إعجابها بشخصية السيد النحال، وكيف يمكن لهذا الشاب أن يضع يده فى التراب فيحوله.. إلى تبر، وكيف صار يحقق لنفسه وشريكتيه حكمت وبشاير إيرادًا مذهلًا لم يحلما به، وكيف حوّل أرض الزيتون إلى خلية من العمل والحركة والنشاط والأموال المتدفقة، وكيف يعيش الآن بدور كامل بالفيلا:

ـ «ألا يجب أن يكون هذا الطابق الأنيق هو بيت الزوجية يا خميسة؟»

ثم ذكرتها أنها تكاد تكون مقطوعة من شجرة.. فبعد حادث فريد هنيدى انصرف عنها وانشغل بمصيبته، وتوقف رأفت إبراهيم عن زيارتها بعد تخرجه، ولم يعد رجب يأتى إليها إلا لمامًا..

فسألتها خميسة:

ـ «أأنت تتحدثين كرسول من عنده، أم أنها فكرتك؟»

لمحت مارى أن سؤالها ينطوى على أمنية.. فسارعت بكذبة بيضاء:

ـ «كثيرًا ما ناشدنى أن أخرجك من صمتك، ولكنى كنت فى انتظار إشارة منك..»

ـ «إذن دعينى أفكر..»

وأسرعت مارى إلى رجل الأعمال الشاب الأنيق فى مكتبه الفاخر بفيلا الزيتون وتشهق وهى ترى نفسها فى مكان مؤسس بذوق رفيع، فهتفت:

ـ «حكمت وبشاير يقولان إنك «جنتلمان» وسوف أبلغهما أنك صاحب ذوق رفيع.. وأوصف لهما كيف حولت هذا الدور المهجور إلى جنة.»

فسارع باستثمار هذا الثناء، وطلب منها أن يسمحا له بتشييد حوائط يعزل بها هذا السلم الداخلى الصاعد من الدور الأرضى إلى الدور الأول، فهذا السلم لم تعد له وظيفة

طالما أن ساكنى الدور الأرضى لا يصعدون به إلى أعلى، وأن وجود السلم الآخر الصاعد من الحديقة إلى مكتبه جعله يفكر فى هذا الغلق رحمة بالسيدتين من ضجيج الضيوف والموظفين..

ابتسمت مارى فى خبث لذيذ:

ـ «كأنك تقرأ أفكارى.. فأنا قلت لخميسة إن هذا الطابق يصلح بيتًا للزوجية لها.. ولك.. ومن اللائق فعلًا أن يعزل عن أسفل..»

ابتسم هو الآخر، ولكن فى خيلاء:

ـ «لم أتحدث معك عمدًا ومن شهور طويلة حول حبى المتوقف عن العمل لثقتى أنك ستتولين بث الحياة فى أوصاله..»

ـ «لقد تحدثت معها بما فيه الكفاية، وكذبت عليها عندما سألتنى إن كان هذا رأيك فى إعادة المياه إلى مجاريها.. وأجبتها بنعم.. وهى تفكر جديًّا فى الاهتمام بعرضك.. فاطرق الحديد وهو ساخن»

وكان الحديد بالفعل ساخنًا ويعوزه التشكيل، فخميسة لم تفكر فيما سوف يكون، بل استرجعت ما قد كان يوم أحبت السيد النحال، أحبته كولد هناك فرق كبير فى نظرها بينه وبين كل أولاد البلد، جرىء وطموح وشرس ومتحدث لبق، وله شخصيه لم ينل منها فقره الشديد، وعندما اعترفت له بحبها فى ليلة ظلماء ومثيرة انهال عليها شعره الرومانسى الرقيق..

«ترى.. هل تغير السيد إلى هذه الدرجة حتى إن السيدة مارى لا تكف عن الإشادة به؟.. قال لى إننى أيقظته، وقال لى إن حبى له هو الذى سيشفيه، وقال لى إنه سينتحر لو فقدنى، ثم قال لى إنه من الآن سوف يكون أبى وأمى وزوجى وحبيبى.. ألا تعرفين الغفران يا خميسة؟.. الله الغفار لكل الأخطاء والخطايا سوف يرضى عنى إذا صفحت عن ذنب لرجل أحبه.. لأننى أحبه..»

* * *

جاءها صوته به شجن:

ـ «إلى متى يا خميسة سيظل بيننا رسول.. ورسولنا المحتوم هو الحب الذى يقرب القلوب..؟»

ـ «مارى تقول إنك ناجح فى عملك الجديد»

ـ «الروح التى اندفع بها إلى النجاح هى قبس من روحك يا خميسة.. أريد أن أثبت لك أننى تحولت وتقدمت.. سأدعوك لزيارتى»

ـ «والحشيش؟»

ـ «لعنة الله عليه.. أصبح مجرد ذكرى.. يومى كله هنا أقضيه فى أرض الزيتون بعد أن فصلونى من المطابع..»

ـ «كيف أصدقك..؟»

ـ «أنت تعرفين المكان.. خذى تاكسيًا وتعالى الآن .. أنا فى انتظارك..»

* * *

جهز مكان اللقاء فى مكتبه الفاخر حتى تجده به منفردًا.. أقبلت عليه ففتح ذراعيه عن آخرهما حتى يضمها إلى صدره.. هربت بعيدًا عن مرمى أحضانه.. بدا عليه الوجوم والضيق: «إذن، فأنت لا تحبيننى..»

ـ «حتى لو اعترفت لك بأننى ما زلت أحبك، فلا علاقة لذلك بما يحدث فى الأفلام المصرية.. كيف تريد أن تأخذنى فى حضنك هكذا ببساطة..؟»

ـ «هكذا أنت دائمًا يا خميسة.. صعبة»

ـ «لو أقنعتنى بكيفية ألا أكون صعبة.. فسوف أتحول على يديك إلى امرأة سهلة..»

ـ «هنيئًا لك بكلية الحقوق.. وهنيئًا لمستقبل المحاماة بالمحامية خميسة عفيفى»

ـ «أنت دائمًا تجيد الهروب بشكل بارع، كان يجب أن تصبح أنت المحامى.. لا أنا»

ثم دققت النظر فى الفراغ الممتد أمامها عبر الشباك.. سيارات.. وبشر.. وحركة.. ثم راحت تدقق النظر أكثر.. واقتربت من الشباك وهى تهتف بذهول:

ـ «من هذا؟.. عنتر مكاوى..؟ رسولك بالحشيش إلى بدير؟»

دق قلبه وانتقل ناحيتها وراح يمعن النظر:

ـ «أجل.. إنه هو.. ما زلت تذكرينه..»

رمت إليه نظرة لوم:

ـ «وهل يمكننى أن أنساه؟.. قلت لى إنك هجرت الحشيش، فلماذا تحتفظ به؟ هذا الرجل»

أرسل إليها نظرة أشد لومًا:

ـ «إنه يشرف على ورشة الصيانة وطلمية السولار.. وهل لأننى اتجهت إلى الحلال معناه أن أقطع عيش رجل خاطر بحياته فى عملى القديم؟..»

رأى أنه قد حان الحين أن يهبط بها إلى الدور الأرضى فى زيارة إلى حكمت وبشاير.. فأمامها ستغدق العجوزان الثناء عليه والفخر به، وسوف يجتمع ثناؤهما مع ما سمعته خميسةمن ثناء ضاف أسبغته عليه السيدة مارى. «فهل سيساهم كل هذا الثناء فى لى عنق فرستى الجامحة؟»

ونال ما تمناه، ولم تستطع خميسة أن تدفع عن رأسها سيل الحب المنهمر والثناء المتدفق من السيدتين، ووجدت أن قصتها معه ـ تلك التى اخترعها السيد وخفف أحداثها المأساوية إلى أحداث عاطفية تتعلق بالهجر والدلال ـ لم تكن خافية على صديقتىْ سيدتها مارى.

وأمام الجميع غرقت الفتاة فى الحيرة إلى أن استأذنت بالانصراف وصعدت معه مرة أخرى إلى الدور العلوى وهى مأخوذة بالصمت والشرود فسألها:

ـ «ما بك يا خميسة؟..»

ـ «خائفة..»

ـ «ممن؟»

ـ «من أشياء كثيرة»

ـ «هل تخافين منى ؟»

ـ «لا أنكرك القول.. نعم»

ـ «لماذا ؟»

ـ «كثيرًا ما أحس أنك قريب منى للغاية، وسرعان ما أحس بعده أنك بعيد عنى ـ للغاية»

ـ «وإلى متى ستظلين هكذا؟»

ـ «لا أدرى»

ـ «أنت تخافين من الناس وليس منى، ويشغلك ما سوف يحكمون عليك به إذا تزوجت خصم والدك الذى تسبب فى حبسه رغم براءتى من هذا الاتهام.»

ـ «وهذا أيضًا قول صحيح»

ـ «إذن، فيجب ألا يعلم هؤلاء الناس أننا تزوجنا»

ـ «كيف.. نتزوج فى السر؟»

ـ «لا.. أقصد ذلك.. نتزوج فى العلن وبشكل محدود.. ألا يكفيك ثلاث نساء ورجلان؟»

ـ «النساء وعرفتهن.. فمن هما الرجلان؟»

ـ «اثنان من موظفى شركتى.. أثق بهما، عنتر مكاوى ليس منهما..»

ـ «قلت لى ستكون أبى وأخى وزوجى وحبيبى»

ـ «وحارسك الأمين يا خميسة»

ـ «موافقة»

* * *

وبعد حين فهم المخنث «كله» ومعه «السنى» صاحب الذقن البنى لماذا طلب منهما رجلها الأثير السيد النحال أن يرتديا أفخم ما لديهما من ثياب .

فحين خطا المأذون خطوته الأولى بالدور الأرضى بالفيلا عرفا أن هناك عقدًا لقران ما.. ولكن من هى العروس فى هاتين العجوزين اللتين تودعان الحياة إلا إحداهما التى بها رمق..

وعندما هبطت نجلاء برفقة السيد من الدور العلوى فى أبهى زينتها ارتفعت الحواجب عن العيون والشفاه عن الأسنان والرءوس إلى قمة الدرج الهابط. فهذه هى الملكة التى يستحقها رجلهم الكريم. وتم عقد قران الآنسة البكر الرشيدة خميسة عفيفى السيد حمزة على السيد عباس عبد المحسن النحال بشهود عدول هما رأفت فاروق مرسى الشهير «بكّله» وزميله عبد الحميد أبو الوفا عجيزة الشهير «بالسنى» وتناولوا جميعًا أكواب الشربات من يد العجوز حكمت، وقطع الجاتوه من يد أختها بشاير، وبعض السجائر الأجنبية من يد السيدة مارى.

ثم انطلق العريس بعروسه باسم الثغر، رائق المحيا، مودعًا حفلة الصغير والذى لم تنطلق به زغرودة أو تعلو فى أجوائه جملة موسيقية واحدة.

* * *

وهما بالتاكسى لقضاء السهرة فى كازينو صفية حلمى بميدان الأوبرا لم تكن تعلم أين سيذهب بها بعد السهرة، لكنها تثق أنها لن يعودا إلى فيلا الزيتون، فالطابق العلوى لايوجد به سوى أثاث مكتبى والأخشاب الموردة لعمل حوائط حول فتحة السلم تملأ الصالة .

أما ما يعتمل فى صدرها من سر يتقلب على مضض، فقد ملأ رأسها بالحيرة:

هل تبلغه أم لا؟..

وبينما كان يدعو المصور بإشارة من سبابته للحضور عندهما لالتقاط عدة صور . سارع فضمها إلى جانبه وهو يلف ذراعه حول خصرها وهتف بها وهو يضحك: «**اضحكى..**»

حاولت أن تتذكر أى موقف قديم فى البلد يجلب لها الضحك، فاكتشفت أنها لم تتمتع بمثل ذلك الشىء.. فكل حياتها حروب متصلة.. بينها وبين أبيها من أجل أمها، ثم موت أمها، وزواج أبيها، ثم بينها وبين صفية زوجة أبيها.. ثم بينها وبين أبيها، من أجل صفية.. ثم من أجل طمع صفية فى الدكان ، ثم استخدام العند ومغادرة المدرسة حتى لا تتمكن صفية من الدكان.. ثم وقوعها فى حب السيد النحال.. «**كيف بالله لا أحب إلا السيد؟..** صحيح الحب أعمى..»

ـ «اضحكى..»

أفاقت على جذبة ثانية. وضمة أكثر ضغطًا على خصرها، وتذكرت أنها لم تتمكن من جلب الضحك فى المرة الأولى..

فحاولت فى المرة الثانية.

والنتيجة بعد أن جاءتها الصورة: ابتسامة بها حزن.

قررت فى جلستها التاريخية بالكازينو أن تسرب ما لديها تدريجيًّا، فسألته مصطنعة:

ـ «ظننتك ستدعو أميرًا إلى حفل زفافنا»

ـ «وما الذى ذكّرك بأمير...الليلة؟.»

ـ «ألا يجب أن أذكره، وهو الذى جد فى البحث عنى حتى عثر علي»

توقفت الشوكة بقطعة اللحم التى كانت فى طريقها إلى فمه:

ـ «أمير.. عثر عليك... وقابلك؟»

ـ «وجاءنى فى الفندق.. لكنه لم يقابل مارى مثلك»

ـ «وكيف عثر عليك؟»

ـ «عن طريق رحلة طويلة بدأت من عند طاهر زين الدين الذى قال له عن مكانى..»

وصمتت برهة ثم سألته: «أفهم من هذا أنكما ـ أنت وأخوك ـ لا تلتقيان؟...»

ـ «تقريبًا»

وصمت قليلًا، ثم سألها هو:

ـ «وماذا قال لك عن طاهر؟..»

ـ «قال إنه يعانى من ورم خبيث فى ساقه سيقضى عليه، وقال إنك سوف ترثه..»

بحلق فيها بشدة: «أنا أرث طاهر؟ كيف..؟»

تناولت كوب ماء، ونالت منه رشفة لتوارى اهتزازها:

ـ «يقول إنك تسعى لإقناع خطيبته فوزية لتشاركك فى محل كوافير»

تذكر أنه فعلًا فكر فى ذلك، وعرض هذا الأمر على فوزية بعدما شاهد بنفسه عشيقات حشمت بركات يدفعن مبالغ طائلة فى كل تسريحة بمختلف المحلات؛ حيث يذهب لاصطحابهم إلى أوكار حشمت بركات..

فعنتر مكاوى حتى الآن لا يعرف هذه المهمة الإضافية التى يقوم بها معلمه السيد النحال بعيدًا عنه، مهمة القوادة والتخديم على ليالى حشمت الحمراء.

لم ينكر اهتمامه بفكرة مشروع الكوافير، فقال لها:

ـ «مازلت أحلم بهذا المشروع..»

فسألته: «مشروع المحل.. أم مشروع مشاركة فوزية؟»

لمح بريق الغيرة يطل من عينيها فلم يبالِ.. وقال لها:

ـ «لا ينجح مثل هذا المشروع إلا بيد امرأة.. فوزية أو غيرها..»

ـ «إذن، فلو فكرت فيه فلن يديره سواى.. جحا أولى بلحم توره..»

ـ «اللحم شىء.. وتصفيف الشعر شىء آخر.. يلزمك خبرة مستفادة..»

ـ «أنا جاهزة لنيل هذه الخبرة ليس عن طريق فوزية»

ـ «يبدو أن أميرًا قام بالواجب على خير وجه، وأمدك بأشياء كثيرة..»

ـ «ما فهمته بحدسى ومن خلال حديثه أنه يود أن يزيحك من طريقه، ويستعد لأن يرث ثروة طاهر الوحيدة.. فتاته الجميلة..»

ـ «دعينى أحيى حدسك الفذ فيما يتعلق برغبة أمير فى امتلاك فوزية.. أما أنا فلم أفكر إلا فى الفوز بك أنت.. فاشطبى على أى شىء آخر..»

طاف بخيالها ما كان يردده أهل البلد من أن أبناء النحال لا يحلو لهم إلا خطف ما فى أيدى الناس، واعتبرت أن ما يحيطها الآن ليس عرسًا بقدر ما هو خطف ناعم لزوجة بالمجان، وهى لا تنكر أنها استجابت لهذا الخطف بخاطرها بعد أن لمست فى حياة أمير أن الحدأة تحوم حول كتكوت آخر اسمه فوزية.

حينئذ لم تستطع أن تقاوم الحريق الصغير الذى شب فى قلبها.. حريق غامت خلف

دخانه كل المرئيات التى كانت ماثلة فى سجل أسود ملطخ بأفعال السيد النحال.

وعلى الجانب الآخر، فقد تأمل ابن النحال الاحمرار الناطق بالتردد والخجل فى وجنتى خميسة، والاستكانة الكامنة فى صوتها، وعرف أن القدر قد وقف فى صفه عندما أتى أمير بما أتى به من أخبار ووضعها أمام خميسة.

أخبار أزعجتها.. أخبار اكتشفت منها أن هناك فتاة أخرى قد تزيحها من عالم السيد وإلى الأبد.. وهمس لنفسه بفخر: «**والله لقد خدمتنى أيها الأمير الحقير، ووالله ماكانت عودتك الميسورة يا خميسة وقبولك لهذا الزواج المسلوق إلا لأنك أقلقك إهمالى لك وقت اهتمامى بأرض الزيتون، تم ما أقلقك من حديث أمير عن فوزية**»

* * *

وفى التاكسى همست له:

ـ «**إلى أين ستذهب بى؟**»

فهمس لها بابتسامة واسعة:

ـ «**إلى عش الزوجية سترين الآن.**»

* * *

وفى شقة المنيرة الآهلة ببعض المفروشات القديمة، وغرفة نوم جديدة، أغلق خلفهما الباب وحملها ضاحكًا حتى السرير، وما إن خفتت الضحكات حتى كسا وجهه بعلامات الحزم والجدية وقال لها:

ـ «**لا أحد من كلّ الذين حولى يعرف طريق هذه الشقة حتى أخى أمير نفسه..، أول من يدخلها أنت.. لم يكن فى حسبانى أن يشاركنى فيها أحد.. لا أدرى لماذا ظللت حريصًا على ذلك حتى الآن؟. جميل أن يحدث ذلك حتى تنالى هذا الشرف.**»

ثم قام فخلع الجاكت، وهو آخذ فى الحديث:

ـ «**نريد أن نحذر مارى ألا تخبر أميرًا بزواجنا**»

تناولت منه الجاكت وعلقته على شماعه ووضعته فى الدولاب وهى تقول:

ـ «بما أنه شقيقك، فقد يحزنه ألا تخبره»

خلع البنطلون فأسرعت وتناولته منه وطوته فى شماعة الجاكت وهو يتأمل حديثها ووثق أنها تصبو أن يصل خبر زواجه منها إلى فوزية عن طريق أمير.. «يا للنساء..»

ـ «لا يهمنى أن يحزن أو يفرح.. يهمنى ألا يعرف.»

ثم اتجة نحوها وأدار ظهرها نحوه.

ـ «يبدو لى أنه مشغول بفوزية..»

وعندما انزلق فستانها عن جسدها، قال لها:

ـ «تتحدثين عن فوزية كأنك تعرفينها منذ زمن بعيد».

اتجهت نحوه فحركت رباط العنق من رقبته ثم خلعته وراحت تفتح أزرار القميص:

ـ «يبدو أنها فتاة مغرية..»

قال لها:

ـ «الإغراء الحقيقى هنا.. أمامى الآن»

قالت له:

ـ «أنا ملك يمينك...»

انتبه إلى قولها الناعم المرتعش: بكلتا يديه:

ـ «وأنا عبدك المطيع»

وسرعان ما تخلص من الفانلة «وفردة جورب واحدة» وحملها إلى السرير، فأيقنت أنه انشغل عن التخلص من فردة الجورب اليُمنى عندما اهتاجت رجولته:

ورغم إقباله النهم عليها لم تكن تعلم أن جزءًا يسيرًا من عقله ينصرف عنها ـ رغمًا عنه ـ إلى شخص محير فى حياته.. أخ حقير اسمه أمير.